المحاضرة التاسعة عشرة

مذهب الجاحظ (١)

في التفسير والتأويل

—«×»—

تبين لنا ان الجاحظ يعتمد في تحقيق العلم على العقل وقد وضحنا مذاهبه في هذا الباب ولم يقتصر في إعماله العقل على العلم او على الفلسفة وانما أعمل هذا العقل في الدين وخاصة في تفسير الآيات وتأويل الأحاديث وشأننا في مجلسنا هذا ان ننتخب نماذج من تفسيره وتأويله ظهرت عليها آثار العقل ، وغايتنا في انتخابنا تبيين الصفة الغالبة من صفات الجاحظ وهي صفة المفكر ، فلسنا نرمي الى التخطئة والتصويب في هذه السبيل فلكل رأيه في التفسير والتأويل ومالنا في هذا الرأي الاّ الحيدة التامة .

قد كنت ذكرت لكم في كلامي على ثقافة الجاحظ ، وعلى أساتيذه قول النظّام في المفسرين : لا تسترسلوا الى كثير من المفسرين وان نصبوا انفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة الى آخر هذا القول ، وبيّنت لكم ان الجاحظ يشارك النظّام في هذا الرأي فمن قول الجاحظ في هذا الباب (٢) :

«وليس يؤتى القوم الا من الطمع ومن شدة إعجابهم بالغريب من التأويل » .

فمذهب الجاحظ في التفسير والتأويل اجتناب الغريب منهما ، فقد تمرّ به احاديث يحتج بها طائفة من القوم فيردها دون شيء من التصديق ، وقد يخالف هذا الردّ ، فمرةً

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

(٢) كتاب الحيوان الجزء الاول ص ١٦٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يردّها رداً مجرداً دون الافاضة في بيان العلة ، من هذا الشكل قوله [١] :

« هشام بن عروة قال : أخبرني أبي ان عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كانت تقتل الأوزاغ . —

يحيى بن ابي انيسة عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للوزغ : فويسق ، قالت : ولم أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم امر بقتله . —

عبد الرحمن بن زياد قال : وأخبرني هشام عن عروة عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للوزغ : الفويسق . —

ابوبكر الهذلي عن معاذ عن عائشة قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ ، وفي يدي عكاز فيه زُجّ فقال : ياعائشة ماتصنعين بهذا ؟ قلت : أقتل به الوزغ في بيتي . قال : ان تفعلي فان الدواب كلها حين القى ابراهيم صلى الله عليه في النار كانت تطفئ عنه ، وان هذا كان ينفخ عليه فصمّ وبَرِص . —

وهذه الاحاديث كلها يحتج بها اصحاب الجهالات ومن زعم ان الاشياء كانت كلها ناطقة وانها أمم مجراها مجرى الناس » .

ومرة يردها لان رُواتها يروونها دون توضيح شيء من عللها وبرهاناتها مقتصرين فيها على ظاهر الفاظها ، فالجاحظ لايصدّقها . فلنضرب مثلاً لذلك [٢] :

بحث الجاحظ عن الكلام المتروك والأسماء التي زالت مع زوال معانيها كالغلامة بمعنى الجارية وكالمرباع والنشيطة وعن الاسماء التي حدثت في الاسلام ولم تكن في الجاهلية وانما اشتقت من اسماء متقدمة على التشبيه مثل قولهم لمن ادرك الجاهلية والاسلام : مخضرم ، ومثل قولهم : المنافق والمشرك والكافر والتيمم .

وبحث عن بعض كلام كرهوه كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : لايقولن احدكم خبثت نفسي ، ولكن ليقل لقِست نفسي ، كأنه كره ان يضيف المؤمن الطاهر الى نفسه الخبث والفساد بوجه من الوجوه .

(١) كتاب الحيوان الجزء الرابع ص ٩٦ .

(٢) » » » الاول ص ٦٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبعد أن أفاض بعض الافاضة في أشباه هذه المباحث قال :

« وقد كرهوا أشياء مما جاءت في الروايات لا تعرف وجوهها ، فرأى اصحابنا لا يكرهونها ولا نستطيع الردّ عليهم ، ولم نسمع لهم في ذلك اكثر من الكراهة ، ولو كانوا يروون الامور مع عللها وبراهاناتها خفّت المؤنة ولكن اكثر الروايات مجرّدة وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة ودون الإخبار عن البرهان وان كانوا قد شاهدوا النوعين مشاهدة واحدة ، قال ابن مسعود وابوهريرة لا تسموا العنب الكرم ، فان الكرم هو الرجل المسلم ، وقد رفعوا ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم ، واما قوله لا تسبوا الدهر فان الدهر هو الله ، فما أحسن ما فسّر ذلك عبدالرحمن بن مهدي قال وجه هذا عندنا ان القوم قالوا وما يهلكنا الاّ الدهر ، فلما قال القوم ذلك ، قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الله ، يعني ان الذي أهلك القرون هو الله عزّ وجل ، فتوهم منه المتوهم انه انما أوقع الكلام على الدهر » .

وحيناً يردّ الأحاديث ويجادل في ردّها ، من هذا القبيل قوله[1]

وقالوا في الحديث انه من اقتنى كلباً ليس بكلب زرع ولا ضرع ولا قنص فهو آثم ، .....

وبعدُ ، فلعلّ النبي صلى الله عليه وسلم ، قال هذا القول على الحكاية لأقاويل قوم ولعلّ ذلك كان على معنى كان يومئذ معلوماً فيترك الناس العامّة وردوا الخبر سالماً من العلل ، مجرداً غير مميز ، ولعلّ من سمع هذا الحديث شهد آخر الكلام ولم يشهد اوله ، ولعله عليه الصلاة والسلام قصد بهذا الكلام الى ناس من أصحابه قد كان دار بينهم وبينه شيء فيه ، وكل ذلك ممكن سائغ غير مستنكر ولا مدفوع » .

هذا مذهبه في ردّ الأحاديث التي يشك في روايتها ، ولقد ذهب هذا المذهب في تفسير الآيات ، فكما كره الغريب من تأويل الأحاديث فقد كره الغريب من تفسير الآيات ، ولم يخل من تهكم على بعض المفسرين ، وقد يظهر تهكمه من مجرّد ذكره لتفسيرهم من هذا النوع قوله ، وقد سمعتموه من قبل[2]

(١) كتاب الحيوان الجزء الاول ص١٤٧ .

(٢) » » » » ص٦٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار ان اهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفار فعطس الأسد عطسة فرمى من منخريه بزوج سنانير فلذلك السنور أشبه شيء بالاسد وسلح الفيل زوج خنازير ، فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل .

قال كيسان : فينبغي ان يكون ذلك السنور آدم السنانير ، وتلك السنورة حوّاءها وضحك القوم » .

نعم ، يكره الجاحظ الغريب من التفسير ، ومن تفرغه لتأويل قول رفع الى ابي موسى يتبين لكم مقدار إحاطته ببواطن الامور ، فهو لا يقتصر على ظواهرها وانما يتولى الكشف عن أسرارها ، وهذا تأويله الذي أشرت اليه [1] :

وعن قتادة ان ابا موسى قال : لا تتخذوا الدجاج في الدور فتكونوا اهل قرية ، وقد سمعتم ما قال الله تعالى في اهل القرى : أفأمن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ، وهذا عندي من ابي موسى لبس على ما يظنه الناس لان تأويله هذا ليس على وجهه ، ولكنه كره للفرسان ورجال الحرب اتخاذ ما يتخذه الفلاح واصحاب التعيش ، مع حاجته يومئذ الى تفرغهم لحروب العجم ، واخذهم في تأهب الفرسان ، وفي دربة رجال الحرب ، فان كان ذهب الى الذي يظهر في اللفظ فهذا تأويل مرغوب عنه » .

وقبل أن أتعرض لذكر طائفة من أنماط تفسيره لا أرى بأساً برواية بعض كلام له يدل على مقدار كراهيته للغريب من تأويل اي شيء كان حتى قال ولم يهلك الناس شيء كالتأويل ، وهذا هو كلامه [2] :

ويقول الناس فلان مخدوم يذهبون الى انه اذا عزم على الشياطين والارواح والعمار أجابوه وأطاعوه ، فمنهم عبد الله بن هلال الحميري الذي كان يقال له صديق إبليس ، ومنهم كدياس الهندي وصالح الموسوي وقد كان عبيد يقول ان العامري حريص على إجابة العزيمة ولكن البدن اذا لم يصلح ان يكون هيكلاً لم يستطع دخوله ، والحيلة في ذلك ان يتبخر باللُبان الذكر ويراعي سير المشتري و يغتسل بالماء القراح و يدع الجماع و اكل الزهومات و يتوحش في الفيافي و يكثر دخول الخرابات حتى يرق و يلطف و يصير فيه

(١) كتاب الحيوان الجزء الاول ص١٤٣ .

(٢) » » » السادس ص٦٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

متسابه من الجن فان عزم عند ذلك فلم يجب فلا يعودن لمثلها فانه ليس ممن يكون بدنه هيكلاً لها ومتى عاد ضبطه فربما جن وربما مات ؛ قال : فلو كنت ممن يصلح ان يكون هيكلاً لكنت فوق عبدالله بن هلال ، قال الاعراب وربما نزلنا بجمع كثير ورأينا خياماً وقباباً وناساً ثم فقدناهم من ساعتنا والعوام تروي ان ابن مسعود رضي الله عنه رأى رجلاً من الزط فقال هو لا أشبه من رأيت من الجن ليلة الجن ، قال وقد روي عنه خلاف ذلك وتأولوا قوله تعالى وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزدوهم رهقاً ولم يهلك الناس شيء كالتأويل ومما يدل على ماقلنا قول ابي النجم حيث يقول ·

بحيث تستن مع الجن الغول ·

فأخرج الجن من الغول الذي بانت به الجن وهذا عادتهم ان يخرجوا الشيء من الجملة بعد أن دخل الشيء في الجملة فيظهر لأمر خاص وفي بعض الرواية انهم كانوا يسمعون في الجاهلية من أجواف الأوثان همهمة وان خالد بن الوليد حين هدم العزى رمته بالشرر حتى احترق عامة نخلة حتى عوذه النبي صلى الله عليه وسلم وهذه فتنة لم يكن الله تعالى ليمتحن بها الاعراب من العوام وما اشك انه كان للسدنة حيل والطاف لمكان التكسب » ·

من هذا يتبين لنا انه يرد الامور الى حقائقها و يبين في كل فتنة جواهر عللها ، فليس في أجواف الأوثان شيء من الهمهمة وانما هي حيل والطاف يلجأ اليها السدنة على سبيل التكسب ·

فلنعجل بعد هذا كله ، فنبين مواطن من تفسيره ظهرت عليها آثار عقله ·

مرة يحمل اللفظ على ظاهره فالشيطان في اللغة معروف امره ولكن من المفسرين من فسر رؤوس الشياطين في الآية الوارد ذكرها تفسيراً عده الجاحظ غريباً ، وتفرغ لرد التفسير الى حقائقه ، مبيناً السبب الذي من اجله قد تستقبح الشيء ولم نر صورته ، فمن كلام للجاحظ في خلال تفسير بعض الآيات قوله في تأويل هذه الآية[1] :

« انها شجرة تخرج في اصل الجحيم · طلعها كأنه رؤوس الشياطين · قال الجاحظ في تأويل هذه الآية : وليس ان الناس رأوا شيطاناً قط على صورة ولكن لما كان الله قد جعل لها في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجه وكراهته واجرى

(١) كتاب الحيوان الجزء الرابع ص١٣ ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على السنة جميعهم ضرب المثل في ذلك رجع بالايحاش والتنفير وبالاخافة والتقريع الى مافد جعله الله في طباع الأولين والآخرين ، وعند جميع الامم على خلاف طبائع جميع الامم ، وهذا التأويل اشبه في قول من زعم ان رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن » .

ومرة يحمل الكلام على باطنه ، فالتين في اللغة والزيتون معروف امرهما ، ولكن الجاحظ في تفسير قوله تعالى والتين والزيتون ، لم يقف عند ظاهر المعنى ، وانما نفذ بواطن الامور استنباطاً للحكم منها ، من هذا النحو قوله[1] :

وقد قال الله عز وجل والتين والزيتون ، فزعم زيد بن أسلم ان التين دمشق والزيتون فلسطين وللغالية في هذا تأويل ارغب عن التعبير عنه وذكره .....

والكلمات في هذا الموضع ليس يريد بها القول والكلام المؤلف من الحروف وانما يريد النعم والأعاجيب والصلاة وما اشبه ذلك ، فان كلاً من هذه الفنون لو وقف عليه رجل رقيق اللسان صافي الذهن صحيح الفكر تام الأداة لما برح ان تحشره المعاني وتغمره الحكم .

وحيناً يعترض المعترضون في بعض الآيات فيتجرد الجاحظ لردهم الى الصواب ذاهباً في هذا مذهب المتكلمين . من هذا القبيل قوله[2] :

وسنذكر مسألة كلامية وانما نذكرها لكثرة من يعترض في هذا ممن ليس له علم بالكلام ولو كان اعلم الناس باللغة لم ينفعك في باب الدين حتى يكون عالماً بالكلام وقد اعترض معترضون في قوله عزّ وجلّ « واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا » فزعموا ان هذا المثل لا يجوز ان يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام لانه قال « واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها » فما يشبه حال من أعطي شيئاً فلم يقبله ولم يذكر غير ذلك بالكلب الذي ان حملت عليه نبح وولّى ذاهباً وان تركته شد عليك ونبح مع ان قوله يلهث لم يقع في موضعه وانما يلهث الكلب من عطش شديد وحرّ

---

(١) كتاب الحيوان الجزء الاول ص ٩٧ .

(٢) » » » الثاني ص ٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شديد ومن تعب . واما النباح والصياح فمن شيء آخر ، فلنا له ان قال ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فقد يستقيم ان يكون المراد لايسمى مكذبا ولا يقال لهم كذبوا الا وقد كان ذلك منهم مراراً فان لم يكن ذلك فليس ببعيد ان يشبه الذي اوتي الآيات والاعاجيب والبرهانات والكرامات في بدء حرصه عليها وطلبه لها بالكلب في حرصه وطلبه فان الكلب يعطي الجد والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات ، وشبّه رفضه وقذفه لها من يديه ورده لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها بالكلب اذا رجع ينبح بعد اطراده له وواجب ان يكون رَفْضُ قبول الاشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبها والحرص عليها . والكلب اذا أتعب نفسه في شدة السباح مقبلاً اليك ومدبراً عنك لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش . وعلى اننا مازمي بابصارنا الى كلابنا وهي رابضة وادعة الا وهي تلهث من غير ان تكون هناك الا حرارة اجوافها والذي طبعت عليه من شأنها الا ان لَهَثَ الكلب يختلف بالشدة واللين .

وحيناً يطعن في بعض الآيات ناس من الملحدين وبعض من لا علم له بلغة العرب ومداخلها ومخارجها فيهديهم الجاحظ سواء السبيل مفصلاً لهم مذاهب لغة العرب أدق تفصيل ، من هذا النوع قوله [1]

وقد طعن ناس من الملحدين وبعض من لا علم له بوجوه اللغة وتوسع العرب في لغتها وفهم بعضها عن بعض بالاشارة والوحي فقالوا قد علمنا ان الشمع شيء ينقله النحل مما يسقط على الشجر فيبني بيوت النحل منه ثم ينقل من الاشجار العسل الساقط عليها كما يسقط الترنجبين والمن وغير ذلك الا ان مواضع الشمع وآثاره أخفى وأقل فليس العسل بقيء ولا رجيع ولا دخل للنحلة في بطن قط وفي القرآن قول الله عزّ وجل « واوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون » ولو كان انما ذهب الى انه شيء يلتقط من الاشجار كالصموغ وما يتولد من طباع الأندية والأهواء والأشجار انما تمازجت لما كان في ذلك عجب الا بقدر مانجده في أمور كثيرة ، فلنا فقد زعم ابن حائك وناس من جهال الصوفية ان في النحل أنبياء لقوله

(١) كتاب الحيوان الجزء الخامس ص ١٢٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عزّ وجل « وإذ أوحيت الى الحواريين » وماخالف ان يكون في النحل أنبياء بل يجب ان تكون النحل كلها انبياء لقوله عزّ وجل على المخرج العام واوحى ربك الى النحل ولم يخص الامهات والملوك واليعاسيب بل اطلق القول إطلاقاً وبعد ان كنتم مسلمين فليس هذا قول احد من المسلمين والاّ تكونوا مسلمين فلمَ تجعلوا الحجة على نبوة النحل كلاماً هو عندكم باطل . واما قوله عزّ وجل يخرج من بطونها شراب فالعسل ليس بشراب وانما يحول بالماء شراباً او بالماء نبيذاً فسماه كما ترى شراباً اذ كان مما يجيء منه الشراب وقد جاز في كلام العرب ان يقولوا جاءت السماء اليوم بامر عظيم وقد قال الشاعر :

اذا سقط السماء بارض قوم رعيناه وان كانوا غضابا

فزعموا انهم يرعون السماء وان السماء تسقط ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها ومتى حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلاً ولا كثيراً وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم وبه قال وبأسبابه اتسمت وقد خاطب بهذا الكلام اهل تهامة وهذيل وضواحي نجد هؤلاء اصحاب العسل والاعراب اعرف بل ضمغة سائلة وعسلة ساقطة فهل سمعتم باحد انكر هذا البيان او طعن عليه من هذه الحجة .

والأمثال في هذا الباب كثيرة ، فاذا حاولنا الاستقصاء فيها تراخى أمد الكلام ، فالذي يستخرج من كل ماتقدّم ان الجاحظ في امور الدين يذهب مذهبه في امور العلم فكما نبّه في العلم على المسائل التي خرج فيها أصحابها من العقل ، فكذلك نبّه في امور الدين على المسائل التي لا تطابق العقل ، وتنبيهه كان على أساليب شتى ذكرت شيئاً منها ، ومهما اختلفت هذه الاساليب فان جوهرها واحد فالجاحظ لا يريد الا العلة والا البرهان في كل مسألة من المسائل ولقد عابوه باستهزائه من بعض الأحاديث او من بعض الآيات ولو أنصفوا لعدّوا له فضلاً عظيماً في التفسير والتأويل فقد تبين لكم كيف يتفرغ للرد على بعض الطاعنين في القرآن فيُهيب بهم الى الصواب آخذاً عليهم مداخل الطرق ومخارجها يحمل الألفاظ مرةً على ظواهرها اذا كانت الحكمة في حملها على الظواهر ومرةً يحملها على بواطنها اذا كانت الحكمة في حملها على البواطن حتى لا يبقى للطاعنين متنفس يتنفسون منه .

دمشق : ٩ أيار سنة ١٩٣١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net